السلف والاجتهاد في قيام الليل

ثانيا: حالتهم في القيام وهو أنهم يجتهدون في قيام رمضان، لا يفوت أحدهم؛ لا يفوته ليلة من الليالي، إذا فاتته ليلة عد نفسه مصابا، فهم يحافظون على هذه التراويح، يصلونها جماعة أو يصلونها فرادى، وكذلك من حالتهم أنهم يقطعون نصف الليل أو ثلث الليل أو ثلثيه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى: { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ } أي: قريبا من ثلثي الليل { وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ } أي: أحيانا تقوم نصف الليل، وأحيانا تقوم ثلث الليل، يعني: أن هذا كانت عادته، فتارة يقوم ثلثي الليل أي: قريبا منه، الليل في هذا الزمان اثني عشر ساعة أو اثني عشرة إلا ربعا، أي: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، معنى ذلك: أنه إذا قام ثلثي الليل كان قيامه ثمان ساعات، وإذا قام نصف الليل كان قيامه ست ساعات، وإذا قام ثلث الليل كان قيامه يستغرق أربع ساعات، فهكذا كان قيامه، ثم يقتدي به أيضا من معه، يقول الله تعالى: { وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ } أي: وجملة كبيرة من الذين معك، أي: على ما أنت عليه من الصحابة، وهكذا أيضا من بعدهم. ابن عمر -رضي الله عنه- ذكر نافع عنه أنه كان لا ينام من الليل إلا قليلا، يعني: لا ينام إلا جزءا يسيرا من الليل، وبقية الليل يتهجد فيه، إلا أنه في آخر الليل يشتغل بالاستغفار عملا بقول الله تعالى: { كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } فكان يسأل نافعا هل أسحرنا؟ أي: هل جاء وقت السحر؟ فإذا قال: نعم. أوتر ثم جلس يستغفر، وحالتهم في هذا الاستغفار تدل على عدم افتخارهم بأعمالهم، تدل على قوة خوفهم من الله تعالى ولو عملوا ما عملوا. يقول بعض المفسرين في معنى هذه الآية، يقوله ابن رجب وغيره: باتوا طوال ليلهم يصلون، ثم جلسوا في آخر الليل يستغفرون كأنهم مذنبون، كأنهم باتوا على ذنوب يقترفونها، واستغفارهم هذا استغفار من تقصيرهم وإن كانوا قد اجتهدوا وجدوا في العمل، فكأن أحدهم يعترف على نفسه بأنه قد نقص من العمل، أو أنه قد سها أو غفل، أو نحو ذلك، وأنشد ابن رجب قول بعضهم: أستغفر الله من صيامي طول زماني ومن صلاتي صوم يُرى كله خروق وصلاة أيما صلاة أي: أنها ناقصة في نظره، فكأنه يقول: أستغفر الله من هذا العمل الذي عملته ولم أوفيه حقه، مع أنهم قاموا بقدر ما يستطيعون، مدحهم الله تعالى بأنهم عمروا الليل كله وهم يتهجدون يعني: يصلون، { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } إذا اضطجع أحدهم قليلا انتبه وقام يصلي. وذكروا أيضا أن كثيرا منهم لا ينامون إلا قليلا، صحب بعض السلف أحد العباد فلم يره نائما، فسأله: لماذا لم أرك نائما؟ ما رأيتك نائما؟ فقال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى. عجائب القرآن يعني: ما فيه من العبر، كلما جاءت آية فيها عبرة أخذ يتفكر فيها، فيطير عنه النوم، فيبيت يصلي أو يتلو ويتدبر القرآن، هذه حالتهم، يصدق عليهم قول الشاعر كما أنشده ابن رجب منع القران بوعده ووعيده نقل العلوم بليلها لا تهجع فهموا عن الملك العظيم كلامه فهما تذل له الرقاب وتخضع